جامـــعة واســـط
مجلـــــــة كليـــــــة التربيـــــة

العـدد السادس والأربعون ج١
شباط / ٢٠٢٢

صورة المرأة الأسيرة في قصائد الشاعر المعاصر هارون هاشم رشيد

م.د. نذيرة خيرالله جبل
كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة واسط
njabar@uowasit.edu.iq

أستاذ مشارك.د. رسول بلاوي
جامعة خليج فارس، بوشهر – ايران
r.ballawy@pgu.ac.ir

الملخص

استدعى الكثير من الشعراء المعاصرين صورة المرأة لأغراض شتّى في نتاجاتهم الشعرية، ومن أنصع الصور التي وجدناها جديرة بالتأمّل والدراسة هي صورة المرأة المناضلة الأسيرة. يسعى هذا البحث إلى استظهار صورة المرأة الفلسطينية الأسيرة في شعر هارون هاشم وبالتحديد في ديوانه الموسوم بـ "وردة على جبيّن القدس"، ويهدف البحث إلى الكشف عن دور هذه المرأة في الحركة النضالية، ومواقفها البطوليّة، وروح التضحيّة والفداء، وتجسيد معاناة السجناء وفضح انتهاكات المحتل لحقوق الأسرى، بغية التعاطف الجماهيري مع هذه الشريحة المضطهدة في سجون الاحتلال. ومن خلال استجلاء هذه الصورة المشرقة للمرأة المناضلة تظهر لنا بشائر النصر والتحرير. سهيله أندراوس وسمر سامي العلمي من أبرز النساء الأسيرات في سجون المحتل والتي طالما يذكرهما الشاعر هارون هاشم في ديوانه مفتخراً بصمودهما معتذراً لهما عن تقاعس الأمة وعجزها.

الكلمات الدليلية: المقاومة، فلسطين، المرأة، الأسيرة، هارون هاشم رشيد.

جامـــعة واســـط
مجلـــــــة كليـــــــة التربيـــــة

العـدد السادس والأربعون ج١
شباط / ٢٠٢٢

The Features of the captive woman in the poetry of the contemporary poet Haroun Hashem Rashid

D. Nadira Khairallah Jabal
College of Education for Human Sciences
Wasit University

Associate Professor Rasoul Balavi
Gulf University, Bushehr - Iran
r.ballawy@pgu.ac.ir

Abstract

Most of the modern poets bring about the figure of woman for different purposes in their poetic texts. One of the clearest examples that we considered and studied is the figure of the the fighting and arrested woman.This research attempts to reveal the image of the caught Palestinian woman in Harun Hashem's poetry, and intends to unveil the role of this woman in the resistance movement, her courageous actions, the spirit of dedication and regeneration, and to represent the plight of prisoners and reveal the occupier's abuse of family rights to the public's compassion for this marginalized section of Occupation jail. By exploring this shiny image of struggling woman, good omens of victory and liberation become evident. Suhaila Andrawes, Samar Sami Al-Alami are among the most prominent arrested women in the prisons of the occupier. They are always mentioned by the poet, Haroun Hashim in his collection of poems, boasting of their withstanding, and apologizing for the nation’s weakness and falling behind.

Keywords: Resistance, Palestine, woman, captive, Haroun Hashem Rashid.

المقدمة

قام الأسير الفلسطيني بمواقف بطوليّة في سبيل الوطن، فضحّى بنفسه وحياته للذود عن كرامة الشعب، ومصير المقاومة وإذكاء مشعلها الوهّاج؛ وبذلك استحقّ تكريم الشعب وعلى رأسهم الشعراء فذكروا الأسير بإجلال وتعظيم، وأنشدوا له أشعاراً تبيّن مكانته في القلوب. وقد حاول الشاعر هارون هاشم إظهار بطولاتَ الأسراء لكي يزرع روح الأمل والتحدّي في نفوس الشعب، ويدعم المقاومة وسط هذه الأجواء القاتمة. ومن بين هؤلاء الأسراء نجد الكثير من النساء قابعات في سجون المحتل الغاشم حيث ضحين بأنفسهن للذود عن كرامة الشعب وللمساهمة في التخلّص من براثن الاحتلال.

تُعدّ المرأة ركناً مهمّاً من أركان المجتمع على شتّى الأصعدة السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة؛ وهي محور تحفيز الرجل، ومصدر لقوّته، فالأمّ ربّت في حضنها الأجيال، ولها تأثير فاعل في مصير المجتمع. والأم تحرّك أبنها للمساهمة في ساحات المقاومة وبإمكانها أن تحرّر شعباً من براثن الأسر (رستم بور، وشيرزاد، ١٣٩١ش: ٨٥). ولا تكتفي بهذا الأمر بل ترمي بنفسها وسط ساحات القتال وتقف كتفاً إلى كتف المناضلين الأحرار.

يرسم هارون هاشم في ديوان "وردة على جبين القدس" بُعداً مؤلماً من صور المعاناة التي تعرّض لها السجناء في سجون الاحتلال. فهذه المعاناة ولّدت لدى الشاعر «شعوراً غائراً بالظلم، وإحساساً عنيفاً بالقهر، ولكن روح الوطن ظلّت تسكن روحه، وترتحل معه أنّى رحل، كما ظل متمسّكاً صابراً، ينسج خيوط الأمل، ويحلم بغدٍ أفضل» (موسى، ٢٠٠٩م: ٢٩). وفي حقيقة الأمر إنّ تصوير المعاناة عامل محفّز عند كثير من الشعراء الفلسطينيين لابتكار الصور، والألفاظ الموحيّة، بغية تصوير أثر الاحتلال وبيان آثاره النفسيّة (الضمور، ٢٠١٢م: ٢٠٤).

اعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي–النقدي، الذي يعني بدراسة صورة المرأة الأسيرة للوقوف على مواقفها البطوليّة المشرّفة. وتتجلّى أهميّة الدراسة في كونها تناولت موضوعاً حسّاساً له مكانة جليلة في ثقافة المقاومة والنضال الوطني. ومن الواضح أنّ صور الأسير لم تأخذ حقّها بعد في الدراسات الأدبيّة والنقديّة، فهذه الدراسة أخذت على عاتقها قسماً من هذه المسؤوليّة. إنّنا في هذا البحث نسعى إلى الإجابة عن السؤال الآتي: كيف جسّد الشاعر الفلسطيني هارون هاشم رشيد صورة المرأة الأسيرة في ديوان "وردة على جبين القدس"؟

خلفية البحث:

الدراسات التي أُفرِدت لموضوع السجناء في معتقلات الاحتلال قليلة جدّاً، ومن أهمّها، رسالة ماجستير تحمل عنوان «البنيّة الإيقاعيّة في الشعر الفلسطيني المعاصر/ شعر الأسرى أنموذجاً» للباحث معاذ محمد عبدالهادي الحنفي عام ٢٠٠٦م في الجامعة الإسلامية – غزة، وقد درسَ في هذه الرسالة أهمّ البُنى الإيقاعيّة في شعر الأسرى الفلسطينيين، فهذه الدراسة كما هو معلوم ركّزت على الأسلوب دون أن تعطي للقارئ فكرة عن صورة الأسرى في سجون الاحتلال. مقالٌ موسوم بـ "البواعث الموضوعيّة في شعر الأسرى الفلسطينيين" للباحثينِ عبدالخالق العف ومعاذ حفني (٢٠٠٨م)؛ هذا المقال منشور في مجلة الجامعة الإسلاميّة (سلسلة الدراسات الإنسانيّة) وقد ركّز على شعراء المقاومة في السجون والمعتقلات، ومعاناتهم وإبداعاتهم، ووصفهم للسجن. وكتاب "السجن في الشعر

الفلسطيني ١٩٦٧– ٢٠٠١"؛ للشاعر فايز أبي شمالة عن السجناء الشعراء الفلسطينيين في المعتقلات والسجون الإسرائيلية منذ حرب حزيران ١٩٦٧ وحتى عام ٢٠٠١. وقد صدر هذا الكتاب عن المؤسسة الفلسطينية للإرشاد القومي عام ٢٠٠٣م. ويتميز هذا الكتاب بكونه موسوعة شعرية تعرّفنا بجيل من شعراء السجون الذين كتبوا شعراً جميلاً وقوياً ورقراقاً وعاطفياً، وصبوراً وغاضباً. ولا يخفي أنّ هاتينِ الدراستين تسلطان الضوء على الشعراء المسجونين دون سواهم من السجناء الفلسطينيين. والدراسات التي عالجت شعر هارون هاشم هي رسالة الماجستير الموسومة بـ "الأبعاد الموضوعيّة والفنيّة في شعر هارون هاشم رشيد" للطالبة سناء بياري (٢٠٠٦م) في جامعة "بيرزيت الفلسطينيّة". وقد قامت الباحثة بدراسة أهمّ الأبعاد الموضوعية التي ظهرت بقوّة في نتاج الشاعر كالأبعاد الذاتية، والوطنية، والقوميّة والإنسانية، ثمّ قامت بدراسة أسلوب الشاعر وقد ركّزت فيه على بناء القصيدة، واللغة الشعرية، والصورة والموسيقا. وهناك مقال موسم بـ "صورة اللاجئ الفلسطيني في شعر هارون رشيد (ديوان مع الغرباء نموذجاً)" للباحثة نجية فايز الحمود منشور في مجلة "جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات"، العدد التاسع والعشرين، سنة ٢٠١٣م. فقد عالجت الباحثة صورة اللاجئين الفلسطينيين في ديوان "مع الغرباء"، وقد توصّلت في دراستها أنّ هذا الديوان نظّمه الشاعر بعد النكبة مباشرةً، فلذلك يُعدّ ديوان النكبة في رصده لأحداثها، وقد صوّر فيه الشاعر معاناة اللاجئين وعذابهم النفسي، ومأساتهم في المخيمات والشتات. ودراسة موسومة بـ «مثيرات التكرار الترنمى فى شعر هارون هاشم رشيد (ديوان وردة على جبين القدس أنموذجاً)» للباحث رسول بلاوي نشرها في مجلة لسان مبين، العدد ٢٧، وقد ركّز الباحث في هذه الدراسة على أنواع التكرار في شعر هارون هاشم وما يتركه هذا التكرار من إيقاعات وجماليات في النص. هناك بحث منشور مجلة آفاق الحضارة الإسلامية، المجلد ١٩، العدد ٢ يحمل عنوان «صورة السجين الفلسطينى فى ديوان «وردة على جبين القدس» لهارون هاشم رشيد» للباحث رسول بلاوي، وقد عالج فيه صورة السجين الفلسطيني بشكل عام فلم يُفرد حتى الآن بحث عن المرأة الأسيرة وحدها. علماً أنّ هذا الشاعر الفلسطيني لم يحظِ بنصيب وافر من الدراسات النقديّة رغم كثرة الموضوعات التي يمكن تناولها في شعره.

حياة الشاعر:

هارون هاشم رشيد، شاعر فلسطيني من مواليد مدينة غزة، حارة الزيتون، عام ١٩٢٧م، وهو من شعراء الخمسينيات الذين أطلق عليهم اسم شعراء النكبة لما عُرِف عنه من مواقف نضاليّة وأشعار تتّسم بروح الثورة والحماس، و«بعد حصوله على الدبلوم العالي لتدريب المعلمين من كليّة غزّة، عمل

في سلك التعليم حتى عام ١٩٥٤م» (الخليلي، ٢٠٠٢م: ٨٤). ثم «عمل مديراً لمكتب إذاعة صوت العرب بغزّة سنة ١٩٥٤م، ثم مندوباً لمنظمة التحرير الفلسطينيّة في قطاع غزة سنة ١٩٦٧م» (شاهين، ٢٠٠٠م: ٢٦). ورحل الشاعر من غزة قسراً بعد حرب ١٩٦٧م، حين أجبرته السلطات الإسرائيليّة على الخروج منها إلى القاهرة، ليعمل ممثلاً لفلسطين في جامعة الدول العربيّة (الخليلي، ٢٠٠٢م: ٨٤).

عايش الشاعر هارون هاشم أحداث المشردين وآلامهم، وذاق مرارة الاغتراب ووحشته، وسكنته هموم وطنه. وهو أحد الشعراء الذين أُطلق عليهم "شعراء النكبة" أو "شعراء المخيم"، كما سمّاه العديد من النقاد شاعر النكبة، وشاعر العودة، وشاعر الثورة، وشاعر القرار، وشاعر اللاجئين، وشاعر الغرباء (الحمود، ٢٠١٣م: ١٥). عاش مأساة اللاجئين الفلسطينيين، فقد عمل مدرساً في مخيمات اللاجئين (صدوق، ٢٠٠٠م: ٢٦٢). أصدر هارون عشرين ديواناً شعرياً، منذ عام ١٩٥٤م حتى الآن، هذا فضلاً عن المسرحيات الشعرية والروايات التي تدور في مجملها حول القضيّة الفلسطينيّة، وعودة الفلسطينيين إلى أوطانهم، وعودة فلسطين إلى شعبها. شعره سهل ممتنع وجله مبني على شكل العمودي يعبّر فيه عن مأساة الشعب الفلسطيني الذي عانى ما عانى من جراء الاحتلال، فخصّص شعره لهم يصف عذابهم واغترابهم وما تعرّضوا له من ظلم وإهمال.

صورة المرأة في الشعر الحديث

ترتبط المرأة ارتباطاً شديداً في الشعر، وقد خصّص لها الشعراء حيزاً واسعاً في نتاجاتهم الشعريّة، فهي الأم والأخت والزوجة والبنت والحبيبة، وكثيراً ما ارتبطت المرأة بالوطن. عالج الشعراء كثيراً من الأغراض الشعرية التي كان موضوعها المرأة كالحجاب والعفة. وفي العصر الحديث لم تُعدّ النظرة للمرأة كما كانت سابقاً، فقد أخرج الشعراء ثيمة المرأة من تصويرها الحسي والجسدي، حيث كانت عنايةُ الشاعر قديماً بالمرأة وتصويرها تصويراً جسدياً إذ احتلت مساحةً كبيرةً في الشعر غزلاً ووصفاً، حينما صوَّر جسدَها بكلِّ تفاصيله الأنثوية لشغفه بها وحبه الكبير لها إذ تشكل صورة المرأة في القصيدة القديمة انطلاقاً مما تتميز به من إنفلات وتعدد جغرافية متنوعة للمتعة (أفادية، ١٩٨٨م: ٥٢). فقد انبرى عددٌ من الشعراء لموضوع المرأة وأخرجوه من صورته الكلاسيكيّة، وتعاملوا مع هذا العنصر برؤية جديدة يعلوها التبجيل والتجليل.

ولعل أبرز الشعراء الذين ركزوا بنتاجاتهم الشعريّة على المرأة هو نزار قباني. عبّرت الأشعار العربية الحديثة عن التحولات الحاصلة في الساحة الإجتماعية العربية وانعكاساتها على الوعي حيث

جاءت صورة المرأة فيها لتفصح عن توقها إلى الحرية والتحرر (بدوي، ٢٠١٧م: ١٤٤). وقد تجلت صورة المرأة في حركة الحداثة الشعرية غير واضحة وضوح صورتها في الكلاسيكية والرومانسية، فالمرأة هناك موضوع قائم بنفسه، يسعى الشاعر إلى توضيحه من خلال التحليل أو التركيب والكشف عن الإحساسات الدفينة وبيان العلاقة القائمة بينهما، وهي هنا مستوى من مستويات القصيدة، متداخلة في موضوعات عدة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، وهي رمز أو معلم من معالم الحياة، يستخدمه الشاعر في مواجهة معالم أخرى في بناء قصيدته بناء عضويا دراميا متكاملا (الموسى، ١٩٩١م: ٤٤).

وهنا نقول أن موضوع المرأة في حركة الحداثة أو في القصيدة الحديثة يندمج مع موضوعات أخرى أو يعبر عنها من خلال الرمزية، ولذلك فإن صور المرأة في القصيدة العربية الحديثة جسّدتها المواصفات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وكلها مواصفات أرادت للمرأة أن تكون حجر الكيمياء القارئ لأسرار الحياة والمجتمع (روابنية، ٢٠٠١م: ٣١٥).

أصبحت المرأة موضع فخر واعتزاز لدى الشعراء فهي العرض والشرف، وتحمل معها أسمى مفاهيم الأمومة التي تربطه بالوطن. وفي هذا المجال شغلت المرأة الفلسطينيّة المقاومة، والشهيدة والأسيرة بال الكثير من الشعراء الأحرار. فهذه المرأة لم تحدّد نفسها في حدود البيت، بل واكبت الرجل في مسيرته النضاليّة فضحّت بنفسها من أجل كرامة الوطن.

الاعتذار من المرأة الأسيرة

يعدّ الاعتذار صفة جليّة من صفات الشخصية القويّة وهو سمة بارزة من سمات الثقة بالنفس. فلا شك أنّ ثقافة الاعتذار تعود لشجاعة الشخص المعتذر. وأجمل أنواع الاعتذار هو اعتذار الرجل للمرأة إذا كان قاصراً عن القيام بواجباتها. من خلال تصفّحنا لنصوص الشاعر وجدناه يكثر من الاعتذار للنساء الأسيرات في سجون المحتل لتقاعس الأمة العربية وعدم الاهتمام بهذه النساء القابعة في سجون العدو. يبدأ الشاعر قصيدة "اعتذار .. وانكسار" معتذراً من الأسيرة سهيلة قائلاً:

نعتذر، وننكسر، ونُخذل نحن الشّعراء

في زمن الرّدة .. (رشيد، ١٩٩٨م: ٦٣)

فالشاعر يجد نفسه شأنه شأن سائر الشعراء عاجزاً عن مساعدة هذه الأسيرة وتخليصها. فيعترف الشاعر أنّ هذه المرأة الأسيرة تعني له كل شيء فهي غصن الزيتون، ومئذنة الأقصى، ونفح الروابي الخضراء، لكنه لا يجد أمامه حيلة لتخلّصها:

يا غصنَ الزّيتون المكسور، على
مئذنة الأقصى، البيضاء،
يا نوحَ شواطئنا التّائقة إليك
ويا نفحَ روابينا الخضراء.
أعتذر إليك (المصدر نفسه: ٦٥)

ثم يتابع نصّه قائلاً:

نعتذرُ إليك، ونعتذر لشاعرك،
ليلى، ونقرُّ بأنّا سُخفاء..
نعتذرُ إليك،
لأنا نحنُ خرسنا،
وجَبُنا وتقاعَسنا،
عن صرختك الخرساء ..
نعتذر لليلى، تنمو كالصّبار (المصدر نفسه: ٦٦ و ٦٧)

لقد كرّر فعل "نعتذر" في هذا المقبوس ٤ مرّات، مقرّاً بقصور الجميع وتقاعسهم. كما نجده يعتذر لأسيرة أخرى هي سمر سامي:

ماذا أقولُ يا سمر!!
ماذا أقولُ بعدُ،
قصر الكلامُ واعتذر (المصدر نفسه: ٧٩)

وفي قصيدة أخرى يقول معتذراً من سمر:

يدمي فــؤادي، كلـــّما أذّكرتُها — وتضجُّ أخيلـتي، أثورُ، وأغـضبُ
لا خـــيلُ معتصـــم، ولا أجناده — في السّاحِ ضلّ المنجدون، وغُيّبوا
أختاه عفواً، يا أعـــز بناتنـــا — ما حيلتي، وأنا الشـّريدُ المتُعبُ
أنا شاعرٌ يا أختُ، سيفي كلمتي — في الحــقّ أجبَهُ لا أخافُ وأرهبُ

(المصدر نفسه: صص ٩٤ و ٩٥)

فالشاعر كلّما يذكر هذه الأسيرة يثور غضباً إذ لا يجد أمامه حيلة لمساندتها فهو أيضاً شريد متعب، سيفه كلمته. يرى الشاعر أن "سمر" هي أعز البنات إلى قلبه فيطلب منها العفو لعجزه. سمر هي ابنة المصرفي الوطني الفلسطيني سامي العلمي، وقد تم الحكم عليها بالسجن عشرين سنة، حيث

اتهمت بتنفيذ انفجار وقع عام ١٩٩٤ في السفارة الاسرائيلية وفي مركز يهودي في لندن، لكنه كان انفجاراً بسيطاً لم يخلّف سوى أضرار بسيطة (نظام الدين، ٢٠٠٨م).

تجسيد بطولة المرأة الأسيرة

لقد جسّدت المرأة الأسيرة أروع صور النضال والبطولة، وأصبحت تحمل مشعلاً وهّاجاً للأجيال القادمة. صورة البطولة «هي الصورة النموذجيّة في كل أمّة، تجتمع فيها كلّ الفضائل المجتمعة في هذه الأمة التي تتوق النفوس لاكتسابها؛ والشعراء حين يخلعون الفضائل على البطل، فإنّهم يستوحون قيم المجتمع ومُثلها العليا» (الرقب، ١٩٨٤م: ١٤). والشاعر هارون هاشم وجد هذه المرأة تجسيداً لبطولات الشعب الأعزل المناضل. في قصيدة "اعتذار.. وانكسار" يخاطب الشاعر "سهيلة أندرواس" في سجنها البعيد، ويتغنّى ببطولاتها وقوّتها الراسخة:

أعتذر إليك
وأشهدُ أنّك أقوى منا
أقوى من كلّ وسائل العظماء
وكلّ الكبراء،
أقوى من كلّ الكذّابين،
والدجالين، وكلّ الفصحاء
من يقدر أن يغضب
أو يصرخ أو يستاء (رشيد، ١٩٩٨م: ٦٥و٦٦)

يعتذر الشاعر من هذه الأسيرة التي قهرت العدو بقوّتها وصلابتها، ويفضّلها على كلّ العظماء، وكلّ الكبراء، والكذّابين، والدجالين، والفصحاء الذين تقاعسوا عن نصرتها ومساعدتها؛ فهي شأنها شأن الكثير من السجناء تُعذّب وتُهان في سجون الاحتلال، ولم ينهض أحدٌ لنصرتها، فانبرى هارون هاشم لتكريم مواقفها وتعظيم شخصيتها معتذراً إليها.

الشموخ والتصدّي للعدو

تغنّى الشاعر بشموخ الأسيرات ومدى صمودهن أمام المحتل، وفي النص الآتي يخاطب الأسيرة "سمر سامي العلمي" في سجنها البريطاني البعيد:

ماذا أقول يا سمر
قد ضاع مني القول،
شُوّشَت في رأسي الفِكر
فأنت في صُمودك الأبي،
عبرةُ العبر
وأنت والأسرة في عيوننا
وفي قلوبنا، مدى العمر
يا إبنة الشّعب الذي
ما ذلّ مرةً، ولا اندحر
فالانتفاضة التي من أجلها
آثرتِ موقف الصمود والخطر
تبقى أعز ما أبدع شعبنا
العظيم ما ابتكر
والشهداء في عليائهم
يُعرّشون حول السّجن،
يسألونك الصّمود للقدر (المصدر نفسه: ٧٧ و ٧٨)

فيصوّر الشاعر هذه الأسيرة في صمودها الأبي عبرة العبر، وهي إبنة هذا الشعب العظيم الذي ما ذلّ يوماً ولا اندحر أمام بطش العدو، وكل هذا الشموخ يعود لأبناء المناضلين الذين وقفوا في وجه المحتل وتصدّوا لضرباته؛ ثم يستطرد قائلاً:

شامخة كما جبال القدس
والخليل، مثلما نابلس يا سمر
ثابتة كما صمودنا الأغر
تعلمين القادمين من أجيالنا،
والنابتين في مسالك الشّرر
بأنّ لا شيء يساوي
لحظة افتداء الأرض،
لحظة الظفر (المصدر نفسه: ٧٨)

فهذه الأسيرة البطلة، شامخة في قوّتها وعزّتها كالجبال، وتمثّل قمة الصمود والتحدّي في سجون العدو، وبذلك تنقل رسالة ساميّة وشريفة للأجيال القادمة فلا شيء يساوي افتداء الوطن الغالي. الشوق والتطلّع إلى لحظة الانتصار غرس في مخيلة سمر روح التحدّي والصمود والمقاومة أمام العنف والبطش.

روح النضال والتضحيّة

والانتماء الوطني يظهر بكثافة في سلوكيات الأسير الذي بذل نفسه دون الوطن، وأحبّ البلاد وأرضه بكلّ إخلاص؛ فيتحدّث الشاعر عن وطنيّة الأسيرة "سمر" وإخلاصها قائلاً:

جعلت فلسطين الحبيبة همّها والغايّة القُصوى التي تترقّبُ

حَلِمَت بها وطناً، كريماً آمناً لا ظالمٌ فيه، ولا متعصّبُ

قالت: لأجلك يا بلادي همّتي ولأجل من قد شُرّدوا وتغربّوا

(المصدر نفسه: ٩٢)

يؤكّد الشاعر مدى تمسّك الأسيرة بوطنها وشوقها إليه رغم الظلم الذي تعرّضت له في سبيل هذا الوطن وتحريره. وفي حديثه عن "سمر العلمي" يقول:

سمر العزيزة، آثرت في بذلها وطناً، يهدّدُ بالضياع ويُنهَبُ

ضربت لنا مثلاً، وكانت قدوة في البذل، لا تخشى ولا تتهيّبُ

ما همّها ترف الحياة ولهوها أو أيّ ما يُغري البنات ويجذبُ

(المصدر نفسه: ٩١ و ٩٢)

فهذه المناضلة المسجونة في غياهب السجون البريطانيّة آثرت أن تفدي نفسها في سبيل وطنها المهدّد بالضياع، حتى أصبحت أسوة للثوّار يُقتدَى بها وبنهجها القويم؛ فهي سلكت هذا النهج بقلبٍ ثابت وعقيدة راسخة لا تخشى ولا تهاب شيئاً، ولم تغريها مغريات الحياة وملاهي الترف والراحة التي شغلت بنات العصر (بلاوي، ١٤٣٧هـ :١٣).

تعذيب المرأة الأسيرة ومعاناتها في سجون المحتل

إنّ إحتلال أرض فلسطين، وما تبعها من قتل، وظلم، وبطش، وتشريد، دفع المواطن الفلسطيني إلى مواجهة المحتلّين بكل وسائل المقاومة، والتصدّي لهم بروح الوطنيّة والبسالة، والصمود والتحدّي في سبيل الحرية؛ فضاق الإحتلال ذرعاً بهؤلاء المناضلين الذين دأبوا على تحرير وطنهم من مخالب اسرائيل، فزج بهم في غياهب السجون والمعتقلات، وأخذ يمارس ضدّهم أنواع الظلم، والتعذيب، والمهانة اللاإنسانيّة بغية إطفاء هذا المشعل الوهّاج، لكنّ هؤلاء الأسراء حملوا رسالة نضاليّة وتوعويّة لأبناء الشعب الفلسطيني المقاوم، وكان لتجربة السجن التي عاشها هؤلاء المناضليّن دورٌ بارزٌ في نمو القيم الإسلاميّة والوطنيّة وترسيخ ثقافة المقاومة (المصدر نفسه :١).

والشاعر هارون هاشم يقوم في النص التالي بمطالبات مشروعة تكشف مخطّطات العدو، وما يحيكه من مؤامرات ضد الشعب الفلسطيني الأعزل، وما يمارسه من تعذيب وتنكيل في حق الأسراء؛ ففي قصيدة عنوانها "دعوة إلى الكتابة" يوجّه نداءً إلى جميع الأحرار أن يكتبوا عن الأسيرة "سمر":

يا إخوتي.. أدعوكم أن تكتبوا لعزيزة، جوراً وظلماً تُغلَبُ
في السجنِ أختكم، تعاني وبليلها القاسي الطويل تُعذّبُ

(رشيد، ١٩٩٨م: ٩١)

صدّر القصيدة ببيان صادر للدكتور «أنيس صايغ السفير» ننقل نصّه كما هو: «.. لعلّ أقل ما نعبّر به عن إعجابنا بسمر سامي العلمي، وإكبارنا لمشاعرها الوطنيّة، والإنسانيّة هو أن نكتب لها وهي في زنزانتها البريطانيّة الباردة، لنبلغها كم هي غالية علينا وكم نحن فخورون بها..». فمن هذا النداء والبيتين السابقين نستشفّ أنّ أقلّ ما يمكن أن تقدّمه الإنسانيّة إلى هذه المظلومة المضطهدة هو الكتابة عنها والتفاعل معها وإدانة العمل الشنيع الذي قام به الاحتلال ليصل صوتها إلى من يهمّه الأمر. وفي قصيدة له تحت عنوان "عيني على السّجناء" يقول:

عيني عليهم، في ظلام القَهر، في السّجن الكبير
عيني عليهم، بين موقوفٍ، ومسجون، ومعتقلٍ أسير
عيني عليهم في زنازين العذاب المُرّ ليل الزّمهرير
أغلى الرّجال همو، وخيرةُ نسوة الشّعب الجسور (المصدر نفسه: ١٣).

لقد سعى الشاعر أن يشارك السجناء في معاناتهم المستمرّة في سجون الاحتلال ما بين تعذيب جسدي ونفسي، ولهفة للقاء الأهل والأحباب، وعاطفة متلهّفة، كما سعى أن يكشف عن سياسات اسرائيل إزاء السجناء وتعذيبهم وإذلالهم، ليستنهض همم البلدان العربيّة للتصدّي لهذه القضيّة.

الدعوة إلى التجمّل بالصبر

من يتمعّن في شعر هارون هاشم يجد أنّه كان طوال هذه السنين العجاف، شاعر الأمل والثورة، عندما يحلّ اليأس وتدلهم الظلمات، فهو يركّز في تعبيره وألفاظه على الحريّة بكل أبعادها، والحريّة التي كانت تهمّ الشاعر هي حريّة الكلمة، وحريّة الحياة على أرض البلد، وحريّة أن يكون إنساناً كما هو يريد لا كما يريده الآخرون (بياري، ٢٠٠٦م: ١٠١)؛ فهو دائماً ينشد شعراً ملتهباً للأسراء وبعد أن يبيّن مواقفهم البطولية ويستنهض الهمم، يدعوهم للتجمّل بالصبر الجميل:

أواهُ يا سمر
يا زهرة النارنج
يا سوسنةُ الوديان
يا حبيبة السّحر
يا قمراً أطلّ في سماء غزة،
التي هناك تنتظر
تجمّلي بالصّبر، كم شعبك
في عذابه صبر (رشيد، ١٩٩٨م: ٧٨ و٧٩).

فبعد أن يخاطب سمر بأجمل الصفات (زهة النارنج، سوسنة الوديان، حبيبة السحر، قمراً أصل... يدعوها للتجمّل بالصّبر كما صبر شعبها الأبي في عذاباته. وفي البيت التالي يخاطبها أيضاً قائلاً:

فتجمّلي بالصّبر، آتٍ فجرُنا ما اسودّ ليلٌ أو تطاول غيهبُ

(المصدر نفسه: ٩٥)

هذا الخطاب لا يخلو من التحفيز على المقاومة، وهو مضمون راسخ في الشعر المقاوم الذي يعكس التزام الشعراء وإيمانهم بقضاياهم الوطنيّة؛ فهذا النداء كأنّه نشيدٌ جماعيٌّ للمقاومين، يشحذ همّتهم، ويدفعهم إلى الأمام، وتسكيناً للأسيرة القابعة في السجن. وفعل الأمر (تجمّلي) يوحي بالقوّة والتكثيف الشعوري، و فعل (آتٍ) المضارع يشكّل المكوّن الرئيس للنصر الذي يشحن همّة المناضلين في صفوف المقاومة؛ وإذا أنعمنا النظر في المستوى الدلالي للأفعال نرى أنّها تدور في فلك دلالي واحد وهو التفاؤل بالنصر والتحرير.

النتائج:

إنّنا في هذه الدراسة الموسومة بـ "صورة المرأة الأسيرة في ديوان "وردة على جبين القدس" توصّلنا إلى نتائج نشير في ما يلي إلي أهمّها:

– استطاع الشاعر أن يعطي صورة ناصعة عن المرأة الفلسطينية الأسيرة ومدى تعرّضها للظلم والتعذيب في سجون المحتل الذي يسعى إلى كبت الأصوات المعارضة لسياساته التعسفية.

– أنشد هارون هاشم شعراً رصيناً يمتاز بالقوّة، وروح المقاومة، والانتماء الوطني، والصمود والتحدّي أمام العدو الغاشم، فلم يقف عن حدّ الندب والبكاء والتحسّر على الأسراء.

– أصبح شعره صوتاً مدويّاً يطالب بحريّة الأسراء، ويتعاطف معهم، فهو شاعرٌ وناقدٌ ومناضلٌ في الوقت نفسه، وقد كرّس جلّ شعره في المطالبة بحقوق الأسراء والعوقين والمشردين.

– سعى هارون هاشم أن يكشف عن سياسات إسرائيل إزاء الأسراء الأبرياء وتعذيبهم وإذلالهم، ليستنهض همم البلدان العربيّة للتصدّي إلى هذه القضيّة الإنسانيّة؛ كما حاول إظهار بطولات هؤلاء الأسراء لكي يزرع الأمل في صفوف المقاومة وسط هذه الأجواء القاتمة.

– يطلب الشاعر من المرأة الأسيرة أن تتحلّى بروح الصبر والمقاومة، ويبشرها بالنصر القريب فما ضاع حق وراءه مطالب. ومهما تصاعد عنف الاحتلال وبطشه، وتوسّعت مخطّطاته البشعة، لن ينال من عزيمة الثوّار، بل إنّ ممارسات الاحتلال الخبيثة تذكي نيران المقاومة وتزيد من إلحاحها على الصمود والتحدّي والتضحيّة في سبيل العقيدة والوطن.

المصادر والمراجع:

– أفاية، محمد نور الدين (١٩٨٨م): **الهوية والإختلاف في المرأة: الكتابة والهامش**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء.

– بدوي، عبده (٢٠٠٧م): **دراسات في النص الشعري: العصر الحديث**، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.

– بلاوي، رسول (١٤٣٧هـ): «صورة السجين الفلسطينى فى ديوان «وردة على جبين القدس» لهارون هاشم رشيد»، **مجلة آفاق الحضارة الإسلامية**، المجلد ١٩، العدد ٢، صص ١– ٢١.

–بياري، سناء (٢٠٠٦م): **الأبعاد الموضوعيّة والفنيّة في شعر هارون هاشم رشيد**، رسالة ماجستير، فلسطين، جامعة بيرزيت.

– الحمود، نجيبة فايز (٢٠١٣م): «صورة اللاجئ الفلسطيني في شعر هارون هاشم رشيد/ ديوان "مع الغرباء" نموذجاً"»، **مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات**، العدد التاسع والعشرون (٣)، صص ١١– ٥٠.

– الخليلي، علي (٢٠٠٢م): **مختارات من الشعر العربي الفلسطيني الحديث**، عمان، منشورات أمانة عمان الكبرى.

– رستم بور، رقية، وفاطمة شيرزاده (١٣٩١ش): «صورة الشهيد في شعر أحمد دحبور ومعين بسيسو»، **فصليّة لسان مبين**، قزوين، جامعة الإمام الخميني (ره) الدوليّة، السنة ٤، العدد ١٠، صص ٧٦–٩٦.

– رشيد، هارون هاشم (١٩٩٨م): **ديوان وردة على جبين القدس**، ط١، القاهرة، دار الشروق.

– الرقب، شفيق (١٩٨٤م): **شعر الجهاد في عصر الموحدين**، عمان، مكتبة الأقصى.

– روابنية، حفيظة (٢٠٠١م): **صورة المرأة ودلالاتها في ثلاث مقطوعات شعرية جاهلية**، جامعة عنابة– الجزائر، دراسات في اللغة والأدب.

–شاهين، أحمد عمر (٢٠٠٠م): **موسوعة كتاب فلسطين في القرن العشرين**، ج٢، غزة، منشورات المركز القومي للدراسات والتوثيق.

– صدوق، راضي (٢٠٠٠م): **شعراء فلسطين في القرن العشرين**، ط١، بيروت، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر.

– الضمور، عماد (٢٠١٤م): «تجليّات المعاناة في شعر خليل زقطان»، **مجلة النجاح للأبحاث**، المجلّد ٢٨، العدد ٤، صص ٩٢١–٩٤٠.

– موسى، إبراهيم نمر (٢٠٠٩م): «تجليات الوطن والثورة في شعر كمال ناصر»، **مجلة دراسات العلوم الإنسانيّة والإجتماعيّة**، الجامعة الأردنيّة، المجلد ٣٦، العدد١، صص ٢٦–٤٣.

– الموسى، خليل (١٩٩١م): **الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر** ط١، دمشق، مطبعة الجمهورية.

– نظام الدين، عرفان (٢٠٠٨م): **ذكريات واسرار ٤٠ عاماً في الإعلام والسياسة**، بيروت، دار الساقي.